

د. محمود محمود أسعد

رواية
بقايا رجل

مؤسسة الأمانة العربية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1444 هـ - 2022 م

كافة الحقوق محفوظة

الإصدار: رواية. بقايا رجل

المؤلف: د. محمد محمود أسعد

رقم الإيداع القانوني: 2022/16716

الترقيم الدولي: 978/977/783/661/6

الناشر: مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

سنة النشر: 1444 هـ - 2022 م

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

الناشر

مؤسسة الأمة للطباعة والنشر

جمهورية مصر العربية

هواتف: 002 – 048 – 3571223

المبيعات: تحويل داخلي 13

الفاكس: تحويل داخلي: 16

إدارة النشر: 00201066444766

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
إلا بموافقة خطية.

إهداء

إلى كل رجل اتقى الله في الأنثى
إلى كل أب رحيم، وأخ كريم، وابن بار، وزوج شهم.
أهدي لهم جميعاً هذا العمل مع بالغ التقدير
أخوكم محمد

إضاءة

أليست الكتابة وسيلة تعبير لما يعتلج في صدورنا من آلام وأحزان؟! أليست هي صرخة وهمسة وأحياناً معايشة وإحساس بما يجري حولنا من وقائع؟!

رواية "بقايا رجل" تجربة سردية ترصد إجحاف مُجتمع يرى ويسمع ويسكت على ظُلم الأنثى فيُحزنها في مولدها ونشأتها وميراثها. كم من مرّة سمعنا عن إشهار آدم سيفه المسلط على رأس حواء في عالم منافق يُناصر الظالم وأصحاب الجيوب المليئة، بينما رفعت حواء رايتها البيضاء خجلاً، وجلس إبليس قريباً منهما يضحك. كم من رجالٍ رجوا أن يكون مولودهم ذكراً لا أنثى فعندما خاب رجاؤهم خفت أصواتهم وبهتت أنوارهم وشحبت وجوههم، لم تكن هي بأي حال مُذنبه لكنهم رأوها هكذا لأنها جاءت خلافاً لرغبتهم.

رواية "بقايا رجل" ليست فقط حكاية ليلى وفاطمة وأخريات عانين الأمرين من ظلم الرجل وجبروته، هي ليست إقليمية ومقصورة على بلد دون آخر، إنما هي قصّة كثيرات من بنات حواء في مشارق الأرض ومغاربها يعشن في أحفور التسلُّط والتنمر، هي قضية بحجم الإنسانية.. مسلسلها دام لم ينته بعد.

هل تستطيعون يا بنات حواء أن تعلقن كلمة واحدة أمام رجالكم: كفاكم همجية، كفاكم بخساً لوجودنا معكم، لقد شوهتكم وجه الإنسانية الجميل وعدتم بنا إلى زمن الجاهلية.

ألم تكن لكم الأنثى يا معشر الرجال بنتا أنيسة، وأختا رحيمة، وزوجة حبيبة، وأمًا رائعة، إن لم تكن كذلك لماذا أصبحت أحق بالصحبة والإكرام، وإكرامها وبرها أقرب سبيل للوصول إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

المؤلف

د. محمد محمود أسعد

الخيطُ والمخيطُ

ثلاثة رجال في كابين السيارة؛ حسن عبود العامر، وأبو ماجد (والد زوجة حسن)؛ صاحب مكتب ماجد للمعاملات العقارية، وكاتب العدل.

هُدوء مقيت داخل السيارة لولا صوتها الهادر في تسلقها لطريق زلقة في جبل هاني يتبسّم للمحافظة الخضراء في كل الفصول إلا في فصل الشتاء، يُقبَل وجنتها، يحتضنها بحنو، يُبارك أمسها، يشهد مدود وجزور عيشها، ويستكمل معها تقلبات الحياة وأمال السنين.

تبلُغ السيارة بصعوبة أعلى ارتفاع في الجبل، على يمينها لوحة معدنية صغيرة تشير إلى ضيعة حسن المقصودة.. إحدى أميرات الجبل التي تتجَمَل فيه بليلها ونهارها، بأرضها وسمائها، هي أشبه ما تكون بمرآة ذات وجهين، وجه يبدي جمالية القمة وما حولها، ووجه آخر يعكس رحابة المحافظة وحُضرتها الغنوج.

قبيل وصول الرجال إلى دار حاج عبود العامر؛ أبي حسن استكانت شمسُ شباط/فبراير للأفول قبل نداء الطبيعة لها في ذلك اليوم، وبقي سعد ذابح⁽¹⁾ يسرح ويمرح متصابياً في أجواء الجبل بريح هوجاء قاصفة قادمة من كل حذب وصوب، سماء رمادية تتشكل وأمطار متوقعة على وشك الهطول، مدافئ تنفث دخانها الكثيف من مداخن البيوت كقطارات أيام زمان، سكونٌ متقطع يُخيمُ على المساء منذرٌ بحلول ليل شتوي حالك يُثقل ظلمته سحبٌ متراكمة وبردٌ ثقيل يزيد الأنواء جُمودًا وكآبة، فما كان من أحدٍ مهما كان ليخرج من بيته في ذلك المساء إلا إن كان أرعنا أو صاحب حاجة ملحة.

(1) يُسعى أيضاً بسعد دبح لشدة البرد فيه، يمتد من (1 شباط - 12 شباط)

على عجلة من أمر القادمين، تُدق سُقَاطة⁽²⁾ الباب الخارجي لدار آل العامر عدة مرات، يُفتح الباب الكبير وينادي حسن ابن الخامسة والعشرين عاما- العريس الجديد على أهل دارهم أن يفسحوا الطريق ليعبر هو ومن معه باحةً الدار متوجهين إلى غرفة أبيه.

*

في غرفته، يجلس صاحب دار آل العامر؛ حاج عبود العامر؛ مريض الزهايمر الذي تجاوز الستين عاما على سرير نحاسي كبير ذي قوائم عالية تعلوه ناموسية⁽³⁾ قماشية مزركشة، يُجانب السرير من ناحية اليمين كراويت⁽⁴⁾ كبير مُلبسٌ من الأمام بخشب الموزاييك المطعم بالصدف ومفروش من الأعلى بمجالس إسفنجية ووسائد. خلف الكراويت توجد كُتبيّات⁽⁵⁾ مليئة بأشكال وأحجام متنوعة من الزجاجيات والصمديات النحاسية كالمقام⁽⁶⁾ والشماعد. إلى الجانب الأيسر من السرير يرتفع الصجرتون⁽⁷⁾ الكبير بدرفاته الثمانية، أما في مواجهة السرير

(2) يد نحاسية تثبت في أعلى الباب الخارجي لِيُطرق بها.

(3) أيضا تسمى كله.. مظلة قماشية خفيفة تُوضع فوق قوائم السرير للوقاية من قرض الحشرات وتخفيف الإنارة أثناء النوم.

(4) مجلس حجري مرتفع عن أرض الغرفة مقدار 3/4 المتر

(5) خزائن حجرية واجهتها خشب وزجاج

(6) أوعية نحاسية تملأ بالعطر

(7) خزانة ملابس خشبية كبيرة

يرتفع مَحمل⁽⁸⁾ خشبي تصطف فوقه فرشاة صوفية ولُحف وبطانيات متنوعة، إلى جانب المحمل من جهة عتبة الباب ترتفع صِفة⁽⁹⁾ حجرية بمقدار نصف متر يتوسطها خابية⁽¹⁰⁾ ماء عذب.

بيت الحاج عبود في شكله وتخطيطه أشبه بالقناق⁽¹¹⁾، ينفرد عن باقي بيوت ضيعتهم الجبلية في تعدد طوابقه وضخامة جدرانه واتساع باحته، ففي طابقه الأرضي وعلى يمين الداخل إليه، توجد غرفة الضيوف.. سقفها عال زينته ديكورات جبس بورد فيها إضاءة ظاهرة ومخفية وثريرا كريستال كبيرة تتدلى في الوسط، أما أرضيتها فمرمرية تغطي معظمها سجاجيد وفرش وثير، في وسطها ترتفع طاولة نصية تعلوها دُئل نحاسية ومهباج⁽¹²⁾، أما على أطراف الغرفة وُضعت ديوانيات وكراس كبيرة صُنعت من خشب الموزاييك المطعم بالصدف.

في صدر الطابق الأرضي يوجد ليوان كبير يرتفع عن صحن الدار مقدار نص متر غطت أضلاعه الثلاثة دُكك مفروشة بالمدادات والمساند، وإلى مقربة منه مطبخ العائلة الكبير وإلى جانبه مباشرة يوجد مخدع واسع يحتوي على مونة العام من

(8) طاولة خشبية كبيرة تضم أماكن تخزين

(9) دكة حجرية مرتفعة عن الأرض عادة تكون قرب باب الغرفة

(10) وعاء فخاري عادة يملأ بماء للشرب، وأحيانا بزيت الزيتون لحفظه.

(11) بيت كبير بطابقين يحتوي طابقه الأرضي حجرات للاستقبال (سلمك) وغرف

للمعيشة، بينما في طابقه العلوي غرف النوم الواسعة (حرمك).

(12) جرن خشبي لطحن القهوة، ويسمى أحيانا المهباش.

أطارميز⁽¹³⁾ المربيات والجبن والدوبيركة⁽¹⁴⁾ والمكدوس والزيتون الأخضر والعلتون⁽¹⁵⁾ وورق العنب، ودبس البندورة والمخللات، وقلاند قديد⁽¹⁶⁾ القرع والبامية والبادنجان، وتنكات⁽¹⁷⁾ زيت الزيتون، وأكياس البصل والثوم والبطاطا والطحين والسكر والعدس والبرغل والفريكة⁽¹⁸⁾ والرز والتوابل والموايح. ويوجد أيضاً في الطابق الأرضي ثلاث غرف معيشة كبيرة لا تقل جمالاً وترتيباً عن غرفة الضيوف. إلى جانب المطبخ يوجد درج حجري عريض بقلبتين يصل الطابقين بعضهما ببعض ثم يؤدي إلى السطح المُطل على الجهات الأربعة حيث تنكشف من عليه المنطقة برمتها من جهاتها الأربعة بسهولة وجبالها، بتلالها ووديانها، بقراها ومُدنِها.

في الطابق العلوي المغطاة جوانبه بالقرميد الأحمر، توجد أربع غرف نوم كبيرة لكل منها حمامه الخاص، يطل جميع الغرف بناوفاذها الزجاجية المعشقة وأبوابها الخشبية الثقيلة على فسحة سماوية كأرض دار مبلطة فيها دلايتان معرستان تتوسطهما بركة ماء ونافورة وأنوار وأزهار ملونة.

*

(13) أوعية زجاجية لحفظ المواد الغذائية وتسمى أيضاً مرطبانات.

(14) لبن مطبوخ ومجفف

(15) زيتون أسود مجفف

(16) خضار أو لحوم مملحة ومجففة في الشمس والهواء.

(17) صفائح (أوعية) معدنية عادة تُعبأ بالزيت

(18) حنطة/قمح أخضر صلب تم تعريضه للحرارة

يدخل القادمون الثلاثة إلى عُرفة الحاج عبود، ويبدأ كاتب العدل بالسلام:

- السلام عليكم يا حاج

يأتيه جوابًا متقطعًا من أبي حسن:

- وعليكم السلام

- كيف صحتك يا حاج؟ كيف الهمة؟

- الحمد لله على كل حال

قبل أن يبدأ كاتب العدل عمله حاول أن يتأكد من أنه لا يوجد أي لبس أو تضليل في الأمر، وأن ما سيتم نقله من مليكات سيكون حكمًا في ضوء القانون لا أقل ولا أكثر، فتساءل:

- هل تعرف يا حاج لماذا نحن هنا في بيتكم؟

- أهلا وسهلا بكم، لكن لا أعرف

- لا تعرف؟! أليس أنتم من أرسلتم في طلبي؟

- نحن؟!!

- نعم، هذا ما أخبرني به ابنكم حسن وأبو ماجد صاحب المكتب.

خشية أن تمضي الفرصة وألا تعود، تنحنحت الحاجة أمينة أم حسن.. التي قاربت الخمسين عامًا كونها كانت تنتظر قدومهم في غرفتها إلى جانب زوجها حاج عبود، وتدخلت بالقول خشية أن يفهم في الأمر ضير وجور فلا يتم ما تريد.

- أنسيت يا حاج، ألم تبع أراضيك وممتلكاتك لابنك حسن منذ شهر
وقبضت ثمنهم نقدًا.

- أنا؟!!

- إي أنت، وبعلامة أعطيت شيئًا من المصاري لابنتنا فاطمة، وتبرعت
للجامع بعد صلاة الجمعة، الله يعطيك العافية

- إي صحيح

همست الحاجة أمينة للحاضرين بالقول:

- العفو يا جماعة، الزهايمر أحيانًا يؤثر عليه بعض الشيء وينسيه أشياء
من الواقع.

هكذا بدت أم عبود زائرة الحرمين الشريفين صاحبة السبحة المئوية أمام
الحاضرين هادئة ناعمة لكنهما في الحقيقة خبيثة ماكرة مُحْتالَة كالثعلب يتوارى
خلف القطيع ينتظر ليقتنص الفرصة، أكيد لم تكن فخورة بما تُخطط وتسعى له
ولو أنها كانت كذلك لما تحينت الأجواء القارصة كي تدق الحديد وهو حام.
هكذا كاد الشيطانُ مدخلًا لأدم من خلال حواء، وهكذا هي أغرت آدم كي يغوي،
وكان ما كان.

تدخّل أبو ماجد.. صاحب المكتب وقال لكاتب العدل:

- تفضل يا أستاذ ابدأ عملك، هذه قائمة بجميع الممتلكات المباعة من
مالكها عبود العامر إلى ابنه حسن العامر ومن بينها هذا البيت الكبير بما

فيه، وهذه بيانات قيود صادرة يوم أمس عن دائرة الطابو⁽¹⁹⁾ بجميع الممتلكات المطلوب منكم كتابة عقودها وتصديقها لديكم حسب إجراءاتكم القانونية المتبعة.

في محاولة منه لإبعاد الظنون عن فكر كاتب العدل وإكمال المسرحية، وقف الشاب حسن مُظهرًا عدم مبالاته بالأمر وعدم استعجاله له، طالبا من الجميع أن يرجئوا عمل تسجيل العقود حتى يتناولون العشاء في غرفة الضيوف، لكن أبو ماجد أصرَّ على الانتهاء من الإجراءات قبل تناول أي ضيافة أو طعام:

- لماذا الاستعجال على الأكل، هل جئنا لتجربكم، خيركم سابق يا أبا عبود.

فتح كاتب العدل حقيبته الجلدية وأخرج منها عدة أوراق وعلبة تحبير خاصة بالتبصيم، ثم قال:

- أعطوني الهويات الشخصية لكل من البائع والمشتري

على الفور، بادر أبو ماجد بالقول:

- هاك صور عنهم

- لا، أريد الأصل إن سمحت.

- تمام.. أعطوني هوياتكم يا جماعة

(19) إدارة الشهر العقاري

قامت أم حسن إلى الصجرتون وفتحت إحدى درفاته وتناولت صندوقًا خشبيًا صغيرًا وأخرجت منه هوية حاج عبود، بينما ناول حسن هويته مباشرة لكاتب العدل الذي قال:

- على بركة الله، نبدأ

مضت ساعة زمنية والجميع مشدود لما يقوم به الأستاذ كاتب العدل في إعداد عقود البيع والشراء بين الفريقين الأول البائع الأب، والفريق الثاني المشتري الابن مدونًا فمهم جميع أرقام العقارات المبيعة أصولاً، وأرقام مناطقها العقارية ومساحاتها بالأمتار المربعة.

انتهى الأستاذ من كتابة المطلوب وطلب من الجميع الإنصات الجيد حتى يقرأ عليهم نصوص ما تم تحريره:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إنه في يوم الثلاثاء 10 صفر 1396 هجري الموافق لـ 10 شباط عام 1976 ميلادي.. نحن كاتب العدل (س) نُقر ونعترف أنه بحضوري وعلى مسمعي اتفق الطرفان: الطرف الأول البائع السيد (عبود حسن العامر) الجنسية (سورية) تولد (1/1/1916م). محل ورقم القيد (خ12) رقم الهوية () والطرف الثاني المشتري السيد (حسن عبود العامر) الجنسية (سورية) تولد (28/2/1951م). محل ورقم القيد (خ12) رقم الهوية () على بيع وشراء جميع العقارات الواردة أدناه بالجدول الموضح لأرقام العقارات ومناطقها العقارية ومساحاتها بالأمتار المربعة بيعًا قطعيًا، وقد أقر الطرف الأول وهو بكامل أهليته العقلية

والقانونية بأنه قد استلم كامل حقوقه غير منقوصة من الطرف الثاني،
وعليه تمّ تحرير هذا العقد من طرفنا في تاريخه ومكانه وفقاً للإجراءات
المتبعة أصولاً.

بعد تلاوة العقد بشكل كامل على الحاضرين، توجّه كاتب العدل بسؤاله للحاج
عبود:

- هل تُقر بصحة ودقة ما ورد بالعقد يا حاج عبود وأنت بكامل قواك
العقلية.

لم يرد الحاج، بل بقي صامتاً
استغرب الحضور من عدم رده، تقدمت إليه زوجته حاجة أمينة وهمست له في
إذنه

- ألم تسمع يا أبا حسن!؟

قبل أن يقول شيئاً، تدّخل صاحب المكتب العقاري وقال:
- ممكن الحاج ما سمع قراءة كامل العقد، لذلك لم يرد على سؤال الأستاذ.

تساءل كاتب العدل:

- هل تُريد يا حاج أن اقرأ نص العقد مرّة ثانية؟

رد الحاج عبود على الجميع:

- سمعت والله سمعت، أنا لست أطرشاً

- فيك البركة يا حاج، الله يرزقك الصحة والعافية

أجاب حج عبود ظلهم كما يرغبون:

- لا داعي للقراءة مرة ثانية، أنا أقر وأعترف بكل ذلك

سأله الأستاذ:

- هل استلمت كافة المستحقات نقدًا؟

- نعم استلمت

- إذأ على بركة الله

قام الأستاذ إلى جانب سرير الحاج عبود وقال:

- أعطني إيهامك يا حاج عبود وإمهرها بالحبر وابصم هنا على العقد تحت الطرف الأول.

عاد إلى مكانه وقال لحسن:

- تعال يا أخ حسن افعل كما فعل أبوك وابصم أيضًا على العقد تحت الطرف الثاني.

بعد تبصيم العقد من كلا الطرفين وإرجاع الهويات إلى أصحابها، هنأ الأستاذ كلا الطرفين قائلاً:

- مبارك عليكم يا جماعة، فلقد أحلَّ الله البيع وحرَّم الربا

وسارع أبو ماجد بمباركته لحسن قائلاً:

- مبارك يا أبا عبود، أنت تستأهل كل خير

وأيضًا باركت أم حسن العقد لولدها الوحيد:

- مبارك عليك يا ولدي.

بينما بقي حاج عبود جالسًا في سريريه صامتًا شارد الذهن يُفكر بما قد تم تحريره أمامه من جور ومحاباة الابن على حساب البنت، خائته عيناه الذابلتان بدمعة تلتها أخرى فحاول حجب المزيد منهم، ثم قال لزوجته:

- أعطوها شيئًا لفاطمة

ثم أردف قائلاً:

- سجلوا أرض البورة⁽²⁰⁾ لها

ردت عليه:

- والله أنت ما قصرت لا معها ولا مع غيرها يا أبا حسن، لماذا الاستعجال يا حاج.. بعد طول العمر إن شاء الله

لكن حسن تجاوب مع طلب أبيه وقال:

- حاضر يا حاج، أختي تستأهل.

قبل أن يخرج الأستاذ من غرفة حاج عبود متوجهًا مع الحاضرين إلى غرفة الضيوف حيث تم إعداد وليمة طعام تليق بأهل البيت والمناسبة، قال للحاجة أمينة ممانحًا بمكر:

(20) أرض قاحلة لا تصلح للزراعة قبل استصلاحها

- ديروا بالكم على المقبوضات يا أم عبود، أكثروا من الأقفال فالمبلغ محرز.
- بعد تناول عشاءهم الدسم مما لذ وطاب من لحومات وكعب وحلويات وفواكه، وقبل أن يهّم الرجلان في مغادرة دار آل العامر، نادى الحاجة أم حسن على أبي ماجد قائلة:
- ألا تريد أن ترى ابنتك العروس يا أبي ماجد، فهي بانتظارك
- طبعًا، سأذهب لها فورًا.
- خارج غرفة الضيوف، قالت له:
- كل المطلوب صار عندك مثل ما اتفقنا بيع شراء، أريد منك إنهاء الطابو في أسرع وقت مهما كلفك الأمر.
- إن شاء الله يا حاجة، شغلة شهر بيكون كل شيء خالص.
- شهر كثير، أسبوع أو أسبوعين كحد أقصى، تفرّغ بشكل كامل للموضوع، وإكراميتك توصل لك لمكتبك، هذا غير الأجور والأتعاب من نسيبك⁽²¹⁾ حسن.
- خيركم سابق يا حاجة، كلامك أوامر، عسى ولعل توقيت قدمنا اليوم
- لعندكم كان مناسبًا؟

(21) زوج الابنة

- نعم، كان ممتازًا، بالجو القارص لا أحد يخرج من بيته.

*

مضت أيام قليلة بعد زيارة كاتب العدل لهم في بيتهم، وحاج عبود يُفكر مليًا بما حصل وكيف قُضي الأمر بهذه السرعة، ومن هو المستفيد ومن هو المتضرر، يحاول قتل ساعات تمر عليه برتابة وهو قعيد على كرسي متحرك بعجلات، ببال مشنت، وذهن شارد، ووجه ساكن لا يعمل فيه إلا فم لا يُفتح إلا بصعوبة لدواء أو لقليل من طعام أو شراب وعينان ذابلتان، فهزّل جسمه وخارت قواه أكثر وبان عليه الهرم قولاً وفعلاً. لتدهور صحته أكثر استدعوا طبيبًا عامًا أجرى له تخطيطاً للقلب، ثم أخبر ابنه حسن بصراحة:

- للأسف هرمت عضلة القلب عند الحاج.. حاليًا هو أشبه بشمعة صغيرة قد تنطفأ فجأة لأي سبب.

- هل تعني أن مناعته ضعيفة.

- الصراحة كل شيء فيه بات ضعيفًا.

مرّت سنة وأتبعتهما أختها وحالة الحاج عبود في ذبول شديد وتراجع أشد؛ جامدٌ في يومه بجسد نحيل، متكوّرٌ في سريره بهدأة ليل، فاقدٌ لأي مجهود في صحوة نهار، قليلٌ الكلام، شديدٌ الذهن، حاضرٌ غائب، باستثناء لحظات قليلة ينقلونه فيها على كرسيه المتحرك إلى صحن الدار كسجين لديه فسحة يرى فيها نور الدنيا ويشهد انسياب أشعة الشمس إلى باحة سجنه الكبير فتأتيه أفكار وذكريات من ماضٍ

بعيد، يحاول الهروب إلى ذلك الماضي الجميل، تتداخل أمامه عبثية الطفولة وعنفوان الشباب كيف كان بيته عامراً بغنج ابنته فاطمة وعُبوس ولده حسن، حافلاً بزيارات الجيران والأقارب، وكيف كانت أركانه فيأضة بالأنس والنعيم، وأرجاؤه مليئة بضحكات الكبير والصغير، فتظهر ابتسامة خفيفة على وجهه المليء بتجاعيد وأخاديد السنين، ثم ما يلبث أن يعود إلى حاضره وكيف أمسى فيه قعيداً بكل شيء، فتغلبه دمة تنساب على وجنتيه مستذكراً معها قوله تعالى {وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ مَا أَثَمَ فِيهِ قَلْبُهُ وَجَنَّتْ بِهِ يَدَاہُ رَغْمَ أَنَّهُ وَأَمْثَالُهُ لَا يَنسُونَ وَلَكِنْ يَتَنَاسُونَ، فيزدري نفسه أكثر وينأى عن من ساندته لذلك الإجحاف، فيوماً لهم أن يعيدهو إلى زنانتها الكبيرة قبل أن يواريه الثرى يوماً ما مدموماً مَدْحُورًا.

*

كما أن قطار العمر لا يتوقف عند أحد، أيضاً لا تدوم الأحزان مهما كثرت، بهرُّم الكبير وينقضي ذكره، ويكبرُ الصغير ويعلو شأنه فيغدو مصدر الحركة والنشاط ويستعيد البيتُ فيه رونقه من جديد.

ها هي الحياة بدأت تدب في البيت الكبير من جديد، فكثُرَ فيه شدو الأولاد وشقاوتهم، فبعد أن تزوج حسن العامر من هند بنت أبي ماجد صاحب مكتب المعاملات العقارية. بنت مدنية لا ينقصها أبداً دهاء المعرفة في التعامل مع المواقف مهما كانت صعبة، فنالت رضی حماتها أم حسن ولاقت الإكرام والإحسان في دار آل العامر، فغدت معها الحياة مرحة وعامرة.

جاءتهم هند بينت بعد عام من الزواج وأتبعها بأخرى بعد عامين، لمُحِت لها حمايتها بضرورة إنجاب صبي بينما زوجها قال لها ذلك بصراحة بعد أن ضاق صدره بالبنت ذرعاً:

- أريد ذكرًا.. أنتظره بفارغ الصبر ليحمل اسمي واسم العائلة.

لم تكن حياة أهل دار آل العامر إلا لهو بلهو، لا ليل لهم ولا نهار، ينامون حينما يأتهم النوم، ويسهرون كما يسهر الحراس، أيامهم كلها أكل ومرعى وقلة صنعة، فما هي دافعية العمل لمثل حسن وقد اعتاد على مجافاة الحركة وعشق النارجيلة وقرقرتها في أوقات السهر التي عادة ما كانت تسامره فيبادلها الاهتمام فيغير لها الرأس تلو الآخر حتى يعلو صوت الحق "الصلاة خير من النوم"، فلطالما ترى حوله وأعلاه سُحبًا بيضاء متصاعدة من قرقرة نارجيلة أو تدخين سيجارة بينما في النهار إن كان لابد من متعة بعد الأكل أو مع أي فنجان قهوة أو كأس شاي كانت السيجارة خير متعة له وخير صاحب لأصبعيه طيلة ساعات النهار التي غالبًا ما يقضيها بسريره نائمًا أو متكاسلاً، فلماذا التعب ووجع الرأس طالما أنه أخذ من أبيه الخيط والمخيط وأصبح عنده ما يكفيه وعائلته لولد الولد.. أراض وأطيان وبيتٌ كبير.

لكم هو جميل لك أيها الرجل حينما تكون ممتلئ الجدول، لا تشعر بملل أبدًا بل بالعكس تستمتع في كل لحظة من راحتك أينما كنت، لا أحد من أفراد بيتك يمل من تواجدك أمامهم طوال الوقت، حسبك لحظات راحة لا تتدخل فيها في أي شاردة أو وارده من مسائل الآخرين.

*

رغم كل ما هم فيه في البيت الكبير من سعة ورياشة في المال والجاه، يبقون أسرة باردة وفقيرة أسريًا، أسرة تخلو من الترابط الأسري والعاطفي بين أفرادها القريبين للتفرُّق في أهوائهم، البعيدين عن التقارب في شخصياتهم، الفاقدين لأي سلام داخلي، الأمر الذي يجعل منهم مقربين من أتون النفور والتشتُّت الذهني التي غالبًا ما تؤدي ولو بعد حين إلى انحراف، أو انعزال مجتمعي، أو ضعف تركيز، أو ملل في ممارسة أي نشاط.

*

أمضى حاج عبود بضَع سنين مُنهك الجسد ضعيف البنية يتعذب بأيام وليال بات فيها نسيًّا منسيًّا، لم يبق منه إلا بقايا رجل، أحيانًا يخجل من فعلته ويعرف أنه تقرَّم في عيون من حوله وخاصة ابنته فاطمة فتراوده صحوة فتفري مدية الندم في قلبه فريا، فيكثر فيها البكاء، فيوماً إلى زوجته وابنه أن يرضوا فاطمة، وغالبًا ما يُران على قلبه ويغفو ضميره عن أي صحوة فيبقى الحال عما هو عليه أو كما يقال هذا وجه الضيف⁽²²⁾.

في إحدى ليالي كانون سنة 1979، بينما أرهق السهر جميع من في دار آل العامر فناموا، إلا حاج عبود بقي وحيدًا يصارع النوم فصرعه وبقي صاحيًا في جُنح الظلام، لا صحة تسعفه ولا جليس يؤنسه سوى أطياف من عذاب تؤرقه وتطيل عليه ساعات الظلام، فبينما العائلة مُستدفئة في نومها، سعلُ المريض بشدة، وانفجرت شفتاه أكثر من مرة في محاولة منه لقول شيء ما، حاول المهمة، لكنّه

(22) ذهب ولم يعد، أو وعد ولم ينفذ

أخفق، أطبق شفتيه في بأسٍ واضطراب، تحرك حركات عشوائية بارتعاش، لم يسمعه أحد، زوجته الراقدة معه بنفس الغرفة على سريرٍ آخر لم تنبه لإمائه وحركاته تلك، جال بوجهه الذابل المعرَّق وبعينيه الذابلتين في أرجاء الغرفة لكن ظلام دامس أغرق المكان، تناقصت أنفاسه بشدة، تباطأ نبضه، هبطت مستويات الضغط، قلَّت نسب الأكسجين في الدم، وذهب المريض في إغماء.

بين كَرٍّ وفَرٍّ ومُجابهةٍ غير متكافئةٍ بين موتٍ قادمٍ.. تلك القاعدة التي لا استثناء فيها مهما علا شأن ابن آدم أو انخفض فهو بالغ خط نهايته لا محالة، وبين حياةٍ بجسدٍ منهكٍ ترتعد فرائضه لأبي نسيمة ربح، استسلم الحاج عبود أخيرًا إلى نداء الحق وخرج السر الإلهي إلى بارئه، بعد أن استسلم قبل سنوات ثلاث إلى نداء الباطل وخرج من يديه الخيط والمخيط حينما أفرغَ بمقتنيات جيوبه وما امتلأت بها أعنابه وما امتدت إليه رجلاه بين فكِّي ولده حسن دون مقابل، حارمًا ابنته الوحيدة فاطمة عن قصدٍ وتدميرٍ تاركًا إياها لرحمة الأقدار وعويل السنين.

أبدًا لم تُلجم الدهشةُ لسان المتحلقين حول سرير المتوفى في الصباح الباكر، ولم يُغَطِّ الوجوم وجوه الحاضرين ولم تتراء لهم عن قربٍ مشاهد الجزع والخوف الرهيب. باستثناء ابنته فاطمة المظلومة التي تجاوزت العشرين من عمرها فعضت على شفتيها لما شهدت من مشاهد الموت المرعب حتى أدتمتها، وارتعشت يداها وتسارع نبضُها، وتحجَّرت عيناها بوجه أبيها المتوفى، وراحت تولول وتصيح وأبت دمعاتٍ ساخنةٍ إلا أن تنسابَ من عينيها دون استئذان.

ذهب حاج عبود، وأمثاله ممن خطط ونفذ وساند وسكت غير مأسوفًا عليهم وغير آمنين من العقاب.

ذهب حاج عبود بعد أن ذاق ضعف عذاب الحياة وحتماً بظلمه سيدوق ضعف عذاب الممات. ذهب هكذا بلا وداع يليق به وبقي عبرة لمن حوله.

أليست أعمالك يا ابن آدم هي من تضعك بين خيارين، إمّا أن تكون قدوة لمن حولك وإمّا أن تكون عبرة لمن يعتبر ولك الخيار فيما تريد.

مضى حاج عبود وكان يملك فرصة التصحيح لكنه لم يفعل، مضى غير مأسوفاً عليه بعدما قلب موازين الطبيعة وأصول الشرع.

كيف لكم أيها الظالمون يا بقايا الرجال أن تهنؤوا بعيشكم وأبناءهم الذكور وزوجاتهم يسرحون ويمرحون في بيوتكم ولهم الأيدي الطوال في أرزاقكم بينما بناتكم يتضورون جوعاً ويقاومون صلف جوركم بصبر واحتساب، أتحسبوهم راضيات عما فعلتم بهن من حرمان أم تظنون أنهن ناسئات، لا ورب الكعبة فقط إنهم محتسبات أمرهن عند عادل كريم سترد عنده المظالم.

هل تعلمون أيها الظالمون أنكم ستبقون مهما عشتم وتعاليتم في حياتكم مقيدين في حركاتكم، في قراراتكم، ستكونون في عيشكم كالموتى، حياة بلا روح، بلا طعم، بلا أمل.

صبراً أيها المظلومون أن تقنطو من رحمة الله.. يوماً ما سينعكس الموقف "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ".

ظلامكم سيبيكون قهراً، ويرجوكم أن تسامحوهم إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة. تأكدوا أيها المظلومون ستبكون فرحاً يوماً ما عما ستجدونه أمامكم من ثواب عظيم، يوماً ما ستأكدون من أن ظلامكم يهيمون في قعور جهنم إن لم يتوبوا عن أفعالهم قولاً وفعلاً، أما أنتم فستطربون فرحاً بين سباحات السماء.

أيها الظالمون.. الظلم ظلمات وكُفروا فاتقوا الله!
أيها المظلومون: صبرٌ جميل وأبشروا بالتعويض بإذن الله بجنة عرضها السماوات
والأرض!
